روح الاســـــلام

للدكتور محمد عوض محمد

منذ سنوات كنت اطلب العلم فى جامعة لفربول . . .

وفى ذلك الزمن كنت قدعاهدت نفسى وعصبة من الرفقاء، منذ نزلنا بلاد الانكليز على ألا نألو جهداً فى افهام القوم أمر بلادنا ، واطلاعهم على مالنا من تاريخ مجيد وثقافة جليلة . فكنا نرحب بكل من جاء يستطلع منا خبرا ، أو يستفتينا فى أمر يمت الى الشرق بسبب .

وفى يوم من أيام الشتاء، بعد انصرافى من إحدى المحاضرات، ابتدرتنى طالبة من الطالبات بالسؤال الآتى : هل تستطيع أن تخبرنى فى كلمة واحدة أو فى كلمات قلائل ماروح الاسلام ؟

أدهشنى السؤال لأول وهلة ، ونظرت الى السائلة نظرة الحائر المستفسر . فأدركت أن فى السؤال شيئا من الغموض.

فقالت : « إننا ـ مثلا ـ نرى أن روح المسيحية يتمثل فى لفظ واحد وهو الحب . فهذا هو لب لباب ديننا ، والاساس الذى شيدت عليه صروح المسيحية كلها . فما من عقيدة ولا شعائر ولا تعاليم . الا والحب محورها الذى تدور حوله . ولا تكترث لما قد تراه مخالفا لذلك فما هو من المسيحية فى شىء .»

فقلت : « إنك اذن تريدين منى كلمة واحدة أو كلمات قلائل ، تكون من الاسلام بمثابة كلمة الحب من المسيحية ؟.»

فقالت : « أجل فقد يكون روح الاسلام مثلا العدل أو القوة . . »

فأطرقت قليلا ، وأنا أمعن فى التفكير ، لعلى أهتدى الى جواب ترضاه وأرضاه . وخطر لى أن أشرح لها أن للاسلام أركانا خمسة . . لكنى ذكرت أن فى المسيحية ايضا صلاة وصياما . وخشيت أن تقول لى إن هذا من الدين بمثابة الجسم وانها تبحث عن الروح .

قلت لها فى صراحة : « إننى ماخطر لى يوما أن ابحث عن كلمة واحدة تؤدى كل ذلك المعنى الجليل الخطير . . وأنتم معشر الانكليز قوم تحبون تبسيط كل مسألة . . ومع هذا أمهلينى أتدبر الأمر ، أو أسأل أهل الذكر . فلا خير فى جواب عاجل لاينطوى على الصواب . »

***

فى مساء ذلك اليوم جلست فى حجرتى مطرقا ، مسندا رأسى على يدى ، محدقا فى مصطلى تشتعل فيه النار . كأنما كنت ألتمس الالهام من لهيبها المندلع وقبسها المضطرم . وأطفأت المصابيح كى لايلهينى عن التفكير ماباالحجرة من أثاث أو صور . . .

لم أكن ـ علم الله ـ من الملمين بعلوم الدين . وكنت أحس من نفسى عجزا وقصورا ، عن معالجة تلك المسألة ، ولكنى رغم هذا رأيت أن احاول معالجتها ماأستطعت الى ذلك سبيلا . . وجعلت أجهد فكرى أيما اجهاد. وخيل لى أنى أرى أمامى سبلا كثيرة فجعلت أسلك كلامنها ، ولا أزال أتبعه الى نهايته ، ثم أعود فأسلك طريقا آخر فأجتازه الى غايته : وكانت كل خطوة تدفعنى إلى خطوة أخرى حتى أبلغ نهاية المرحلة ...

وهكذا سلكت فى تفكيرى وبحثى طرقا شتى . وعجبت إذ ألفيتنى أصل فى كل مرة إلى غاية واحدة ، ويسلمنى البحث الى شىء واحد .. فقد كان ينتهى بى التفكير دائما الى التوحيد » ...

لعل روح الاسلام إذن هو التوحيد .. وهل أرانى بلغت الغاية حين رستْ بى سفينة الفكر على ذلك الساحل الأمين ؟

أليس التوحيد أن يقصد الناس بجسدهم وبروحهم وجه الاله، ولا ينصرفوا عنه الى سواه ؟ والا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله ؟.. وأن نرتفع بأنفسنا عن عبادة تلك الأوثان البشرية وعبادتها ذل واثم ، وهى تمثال ما بالعالم من شر ورجس ؟ اليس التوحيد هو الذى يرتفع بنا عن عبادة المال والتكالب على جمعه .. وعبادة الشهوات التى تسترقنا وتذلنا .. أليس التوحيد اذن هو الذى يعلو بأنفسنا عن كل دنىء مهين، ويرقى بنا الى سماء كلها طهر وصفاء ؟

فيم التردد إذن ؟ ان روح الاسلام هو التوحيد .

***

جالت بنفسى هذه الخواطر ، وجعلت أرددها فى صدرى مراراً فلا تزداد الا ثباتا ورسوخا. وخيل إلى انى اهتديت إلى اجابة صريحة — لا لبس فيها ولا ابهام — على السؤال الذى سئلته صباح ذلك اليوم .

وكنت أخشى الا التقى بصاحبة السؤال إلا بعد أيام ، فأردت أن ارسل اليها الجواب فى طى كتاب

فتناولت قلما وورقا ، واوقدت المصابيح ، وجعلت أسطر ما جال بخاطرى ، فى شىء من الاسهاب والتفصيل ، كى لا يبقى فى صدر القارئة ذرة من الشك فى صحة ما استقر عليه رأيى .

وأعدت تلاوة الكتاب مرارا، واطمأننت الى انه يؤدى كل ما جال بنفسى أحسن الاداء . وكنت بهذا فرحا طروبا . ثم طويت الكتاب ، ونهضت لاحمله الى دار البريد .

فى تلك الساعة كان المطر ينهمل مدرارا . فجلست الى جانب النافذة انتظر عله يكف أو يسكن قليلا .. وجعلت أنظر الى خارج الدار . أتأمل الغيث اذ يتساقط على أحجار الشارع الملساء ، والضباب الخفيف وقد انتشر فى سائر الارجاء . والمصابيح وهى تبدو ضئيلة فاترة خلال الضباب والغيث . وكأنها أشباح اليقين وسط دياجير الشك .

لم يطل تأملى لذلك المنظر حتى عاد بى الخاطر الى موضوع الكتاب الذى بيدى .. وانتقل بى التفكير من الاسلام الى البلاد التى تدين بالاسلام . وجعلت أنظر بعين الوهم الى تلك الأقطار ، التى يفصل بينى وبينها آلاف الأميال . وأخذت ترتسم أمامى صورتها شيئاً فشيئاً . . .

ليت شعرى ماذا فى بلاد الاسلام من روح الاسلام ؟ وماذا فى بلاد التوحيد من التوحيد ؟

غشينى شىء من الذهول . ورسم الوهم أمام عينى صورة مروعة مفظعة هائلة ، لتلك الأقطار القاصية ..

رأيت البلاد . قد حلق فوقها عقاب البغى ، باسطاً عليها جناحيه ، ومنشباً فيها أظفاره ، وقد خضعت لسلطانه الرقاب ، وعنت لخشيته الوجوه ! وهلعت الأفئدة . وذلت الاعناق ، ورغمت الأنوف !

وانطلقت الأفواه تسبح بحمده ، وتمجده ، وهو لا يزداد الا بغياً وعتواً ، والاعناق لا تزداد الا خشوعا وذلا .

* * *

وتبدلت الرؤيا بعد ذلك . . فأبصرت هيكلا عظيم البناء ، لا يبلغ الطرف مداه . ورأيت الناس منطلقين إلى ابوابه الكبيرة ، ليقيموا الشعائر .. زمر تسعى إثر زمر .. جموع تتجاذب وتتدافع ، ويموج بعضها فى بعض ؟ .. ولا تكاد الأبواب تحتويهم على سعتها ...

ثم انكشف الغطاء وأبصرت ما بداخل الهيكل .. فاذا أوثان هائلة ، قد نصبت فى أرجاء الهيكل . ومن دون كل صنم مذبح عظيم تقدم اليه القرابين ، ويحرق عنده البخور . والناس من حولها بين قائم وقاعد وركع وساجد . .

نظرت ذات اليمين فاذا صنم جبار أصفر اللون ، براق لامع ، ماشكت فى أنه (مامون) إله النضار . إذ لم تنم عنه صورته فقد نم عنه رواده وقصاده :

جنود مجندة وكتائب محتشدة . قد أقبلت على عبادته بأيد ممدودة ، ووجوه تفيض شرهاً وجشعا .

وقد حمل كل عابد قربانه : هذا يقرب الشرف ، وذاك يذبح الدين ، والآخر يقدم الوفاء والميثاق ، وذلك يقرب وطنه الذى نماه وغذاه ، وصاحبه يقدم الأهل الذين انجبوه ... وها هنا شخص يحرق ضميره ومبدأه بخوراً .. وهناك آخر يضحى بما لديه من عفاف وكبرياء ...

وكأن ليس فى العالم شىء أعز وأكبر من أن يكون قربانا لذلك الصنم الهائل الدميم . الذى كان يقبل القربان حيناً ، ويزور عن عباده أحيانا ، فلا يزيدهم نفوره وازوراره إلا تهالكا عليه ، وغلواً فى عبادته ، واكثاراً من الضحايا والقرابين ...

ثم نظرت الى اطراف الهيكل ، فابصرت جموعاً أخرى عاكفة على أوثان اخر : ها هنا إله الشهوات وقد احتشدت عبيده من حوله . وهنالك وثن المناصب والجاه والناس من حوله ركع سجود ... وفى هذه الناحية وتلك شكول وضروب من أصنام يكاد يخطئها العد ، ويعجز عنها الوصف .

***

وألفيت نفسى بعد قليل أتنفس الصعداء ، وقد انجابت عن عينى تلك الرؤيا ، ولم يق أمام ناظرى سوى الغيث المنهمر ، والضباب المنتشر ، وضوء المصابيح الضئيلة .

ولبثت برهة واجماً ساكنا : وقد امتلأت نفسى حزنا وغما . . . .

ثم نهضت ببطء شديد ، وأغلقت النافذة وأسدلت الستر . وعدت الى مجلسى بجانب الموقد ...

وأمسكت بيد مرتجفة ذلك الكتاب الذى تعبت فى تسطيره وتحبيره ...

وبيد مرتجفة القيت به فى النار ... وجعلت أحدق فيه إذ يحور لهيبا ودخانا ...

وأحسست بقطرات تنحدر على خدى .. فتناولت منديلى ومسحتها ... ولعلها من قطرات ذلك الغيث أصابت وجهى وأنا جالس لدى النافذة !

* * *

أنهيت الفتاة بعد أيام فأعادت السؤال فقلت لها ان كان روح النصرانية الحب ، فان روح الاسلام التوحيد .